سلسلة الرسائل (٣٠)

مكة حرسها الله تعالى ١٤٤٤هـ

الولد أمانة في عنق أبويه

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ
مقبل بن هادي الوادعي
حفظها الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

أخواتي في الله نذكر أنفسنا في هذا اللقاء إن شاء الله تعالى بنعمة جليلة، وهي نعمة الأولاد، والتذكير بما يتبع ذلك من مسؤولية في عُنُقِ الأبوين، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢ ﴾ [النحل: ٧٢].

يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الآية في سياق الامتنان بنعمة الزواج، ونعمة الأولاد والحفدة، الحفدة: جمع حفيد، وهو: ولد الولد، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ فولد الولد كالولد؛ ولهذا امتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الأبوين بوجود الأولاد وبوجود الحفدة، فهذه نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ. وقال الله تَعَالَىٰ مبشرًا لامرأة إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ ﴾[هود: ٧١]. مع أن يعقوب إنما هو ولد ابنها إسحاق عليهما السلام، ولكن لأنه نُزِّل منزلة الولد صار كأنه ولدها أصلًا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»(٣/٢٩٧): أَيْ: وَيُولَدُ لِهَذَا الْمَوْلُودِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا، فَتَقَرُّ أَعْيُنُكُمَا بِهِ كَمَا قَرَّتْ بِوَالِدِهِ؛ فَإِنَّ الْفَرَحَ بِوَلَدِ الْوَلَدِ شَدِيدٌ لِبَقَاءِ النَّسْلِ وَالْعَقِبِ.

وقال الله تَعَالَى ممتنًا على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

النافلة: الزيادة، فالأحفاد يعتبرون زيادة على الأصل، وهو ولد الصُّلْبِ، فهذه نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ.

الأولاد هبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تَعَالَى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]. فالأولاد هبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذكر الله في هذه الآية أربعة أقسام، الأول: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ يهب الإناث على الانفراد. الثاني: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ ذكر سبحانه الذكور على الانفراد، ثم قال: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ ﴾ أي: يعطي سبحانه من الصنفين الذكور والإناث، وهذا القسم الثالث هو الغالب أن الله يجمع للزوجين الصنفين الذكور والإناث، أما الرابع: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ العقيم: الذي لا يلد.

وهذه حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعطي بفضله وإحسانه، ويمنع بعدله وحكمته، سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، لا رادَّ لفضله.

الأولاد زينة الحياة الدنيا، كما قال الله تَعَالَى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ ثم قال بعدها: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٦]. الباقيات عند الله خير من زينة الحياة الدنيا، وقد فُسِّرت بتفاسيرَ خاصةً، فسِّرت بـ سبحان

الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وبغير ذلك، ولكن الباقيات الصالحات أعم كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنها تشمل الأعمال الصالحة.

فالأعمال الصالحة خير من زينة الحياة الدنيا، فلا يغتر الآباء بأولادهم، ولا يلهِهِمْ أولادُهم عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ [المنافقون: ٩]. ويقول سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ﴾ [آل عمران: ١٤-١٥]. ﴿ بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ ﴾ أي: من جميع ما تقدم.

والأولاد لن يكونوا قرةَ عين لأبويهم إلا إذا كانوا صالحين بارِّين، طائعين لربهم، مستقيمين على دينهم، فهؤلاء هم الذين تقر بهم أعين الأبوين الصالِحَيْنِ؛ ولهذا في دعاء نبي الله زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ ﴾ [مريم: ٤-٦].

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي ﴾ أي: ضعُف، وإذا ضعف العظم ضعف بقية البدن؛ لأن العظم هو العمود، وهو الأساس للجسم.

﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ أي: كثر الشيب فيه، ﴿ فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴾ من أولياء الله، ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ ﴾ وهذه الوراثة وراثة العلم لا وراثة المال؛ لأن الأنبياء لا يورَثُون كما في «الصحيحين»، ﴿ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴾ يدعو ربه أن الله يرزقه الولد الصالح المرضي عند الله، وهذا من أهَمِّ الأدعية: الدعاء بصلاح الذرية، قبل أن يُرزق الإنسان يدعو ربه أن الله تَعَالَى يرزقه الذرية الطيبة المباركة، وبعد أن يُرزَقَ كذلك يدعو ربه بصلاح الذرية، لا يفتر ولا يَكَلُّ ولا يَمَلُّ.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

لما ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ ﴾ الْأَشُدُّ: هُوَ وَقْتُ اسْتِكْمَالِ الْقُوَّةِ ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُ النُّقْصَانُ (١)، دعا بهؤلاء الدعوات المذكورة: ﴿ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ أَيْ: أَلْهِمْنِي شُكْرَ مَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ مِنَ الْهِدَايَةِ، وَعَلَى وَالِدَيَّ مِنَ التَّحَنُّنِ عَلَيَّ مِنْهُمَا حِينَ رَبَّيَانِي صَغِيرًا. وَقِيلَ: أَنْعَمْتَ عَلَيَّ بِالصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، وَعَلَى وَالِدَيَّ بِالْغِنَى وَالثَّرْوَةِ، وَالْأَوْلَى عَدَمُ تَقْيِيدِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبَوَيْهِ بِنِعْمَةٍ مَخْصُوصَةٍ (٢).

---

(١) قاله الشوكاني في «فتح القدير»(٣/١٨).

(٢) ذكره الشوكاني في «فتح القدير»(٥/٢٢).

وسبحان الله! كيف يجعل الله عَزَّوَجَلَّ في قلوب الأبوين من الرأفة والرحمة بالولد، فلذة الكبد.

إِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا ❁❁❁ أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ

لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ ❁❁❁ لَا مْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الغَمْضِ

يسعد الأبوان بسعادة الولد، ويحزنا لحزنه و مرضه وتعبِهِ.

وهذا على أحد التفاسير في هذه الآية، والتفسير الثاني: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: بالصحة، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بالغنى والثرى، ولكن كما قال الشوكاني: إن الآية لا تقيَّد، فنعم الله لا تعد ولا تحصى.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ يدعو الله إذا بلغ أربعين سنة أن يعينه على الأعمال الصالحة، وأن يستعمله في طاعته.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ الدعاء بصلاح الذرية. قال الشوكاني في «فتح القدير»(٥/٢٢): أَيِ: اجْعَلْ ذُرِّيَّتِي صَالِحِينَ رَاسِخِينَ فِي الصَّلَاحِ مُتَمَكِّنِينَ مِنْهُ.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ ختم الدعاء بالتوسل إلى الله تَعَالَى بعمله الصالح، وهو التوبة والإسلام.

هذه الأدعية يستحب لمن بلغ هذا السن أربعين سنة أن يدعو بها، فلا نغفل عن هذا الدعاء ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قال الشوكاني في «فتح القدير»(٥/٢٢): وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ بَلَغَ عُمْرُهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنْ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ.

أخواتي في الله إن الشرع يحث على الاهتمام بصلاح الأولاد، وسلامتهم من الآفات وشر الشيطان؛ ولهذا شُرع الدعاء عند الوقاع بما ثبت عند البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ، قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ».
تحصين الأولاد قبل وجودهم، وهذا يدل على الحرص على صلاحهم وإبعادهم عن الفساد والمصائب.

وكان والدي رَحِمَهُ اللَّهُ يفيدنا إذا جامع ونسي أن يقول هذا الذكر، قال: يقول بعد أن ينتهي؛ لرواية: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ» فهذا يدل على أنه لا بأس يقول ذلك بعد الانتهاء.

وهذه مسألة مهمة حتى يحصِّن المسلم نفسه وذريته من عدوه الشيطان، الذي يتربص به، ويمكر به من حيث لا يشعر.

كما أنَّ مِنْ أهَمِّ مقاصد تحرِّي اختيار الزوجة الصالحة قبل الزواج تربية الأولاد؛ لأن المرأة الصالحة تحرص على تربية أولادِها تربية صالحة، فالأولاد أمانة في أعناق آبائهم وأمهاتهم.

وإن من أهَمِّ قيام الأبوين بهذه الأمانة:

تربية الولد على العقيدة الصحيحة، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أردف عبد الله بن عباس خلفه ثم قال له: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»(٣).

«يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ» فيه تنبيه الطالب قبل إلقاء الفائدة؛ ليستعدَّ.

«احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ» مَن حفظ الله حفظه، إذا تمسكتِ بدينك يحفظك الله من الآفات والشرور وتخبُّطات الشيطان، يحفظك في دينك ودنياك، ويحفظك في حال ضعفك وحاجتك وشدتك.

هذا الحديث فيه بِشَارةٌ عظيمة، أن من حفظت قوتها وشبابها، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحفظها عند ضعفها وحاجتها وكبر سنها، الجزاء من جنس العمل.

«إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ» تعليق القلوب بالله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا ينبغي تعليق قلوب الأولاد بالله، لا على غيره، ولا على راتب ووظيفة، فإذا سأل يسأل الله عَزَّوَجَلَّ، لأن الله سُبحَانَهُ بيده الخير وبيده الملك والضُّر.

«وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» يطلب العون من الله تَعَالَى، ولا يُدرك خير إلا بمعونة الله تَعَالَى.

---

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وهو في «الصحيح المسند» (٦٨٥) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

«وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ» تعليم العقيدة، تعليم الأولاد الإيمان بالقدر، وأن الضر والنفع بيد الله تَعَالَى.

ومن أهمّ تربية الأولاد: تحفيظهم القرآن وتعليمهم العلم النافع، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» رواه مسلم (١٦٣١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

هذا يفيد: أنه تسبب في صلاح ولده، وقام بتربيته تربية حسنة، وعلَّمه وأحسن تعليمه، فكان الجزاء أنه لم ينسَهُ من الدعاء بعد وفاتِه، وكثير من الأبناء ينسى أبوَيْهِ ولا يُقدِّمُ لهما أي معروف بعد وفاتهما.

وروى الطبراني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الأوسط» رقم (٩٦) عن أبي هريرة، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُعَلِّمُ وَلَدَهُ الْقُرْآنَ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا تُوِّجَ أَبُوهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِتَاجٍ فِي الْجَنَّةِ، يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِتَعْلِيمِهِ وَلَدَهُ الْقُرْآنَ فِي الدُّنْيَا»(٤).

يعني: منزلة من علَّم ولده القرآن رفيعة، فكيف بمنزلة الولد حافظ القرآن! شريطة أن يعمل به.

---

(٤) هذا سند يصلح للاعتبار؛ فيه عباد بن أبي صالح هو عبدُ الله بن أبي صالحٍ السَّمَّان، المدني، لَيِّنُ الحديثِ، فالحديث حسن لغيره، والله أعلم.

وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا؟» أخرجه أبو داود (١٤٥٣)، و أحمد (٢٤/ ٤٠٢) وغيرهما، من طريق زبان بن فائد، عن سهل، عن أبيه. وزبان وسهل بن معاذ ضعيفان.

فالصبر على تحفيظ الأولاد القرآن وتعليمهم أمور دينهم، هذه السعادة الحقيقية أن يكون الأولاد حفاظًا للقرآن متقنين له، هذا الكنز ليس كنوز الدنيا الفانية.

ومن ذلك: أمر الأولاد بالصلاة وحثهم عليها، ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» رواه أبو داود (٤٩٥).

وهذا يحتاج إلى صبر، الصلاة تحتاج إلى صبر، والأمر بالصلاة يحتاج إلى صبر، قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

ربما تتعب الأم وهي تتابع أولادها بالصلاة، أو بخروجهم لصلاة الجماعة في المسجد، وفي إيقاظهم من النوم للصلاة، وهذه عبادة جليلة؛ إذ هي امتثالٌ لقول ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾، وكقوله عزوجل: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٤٥]. فالأم مأجورة إذا تابعت أولادها بالأمر بالصلاة، فلا تضجر أو تفتر عن متابعتهم، وتدعو الله عَزَّوَجَلَّ بالهداية لهم، فالهداية بيد الله سُبحَانَهُ.

ومن أهم تربية الأولاد: الدعاء لهم، ليست التربية بالتوجيهات والتنبيهات فحسب، من أعظم أنواع التربية: الدعاء بالصلاح والخير والهداية لهم؛ لهذا جملة من الأدعية في القرآن بصلاح الذرية كما سبق بعضها، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن

نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقال: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٠]. دعوات عظيمة.

ونرجو أن الله تَعَالَى يتقبل دعاء الوالدين؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ» رواه الترمذي (١٩٠٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

فدعاء الوالدين مستجاب إن شاء الله؛ ولهذا لا ينبغي أن نتساهل أو نفرِّطَ في الدعاء للولد، الولد محتاج إلى دعاء أبويه؛ لأن دعاء الوالدين سعادة.

الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَدَ بصره -عمي-، فكانت أمه تكثر من الدعاء له، فمرة وهي نائمة رأت رؤيا، فإذا خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول لها: إن الله قد ردَّ على ولدك بصره؛ بسبب كثرة بكائك ودعائك، فأصبح وقد رد الله سُبحَانَهُ عليه بصره.

ولا نستبعد الفرَجَ من الله مهما بلغ الحال، ولا نقنط من رحمة الله، حتى لو كانت الأمور قاسية شديدة، ولا نفرِّط في الدعاء مهما بلغ الأمر.

من أقرب الأمثلة: قصة الثلاثة النفر الذين انطبقت عليهم الصخرة، وليس لهم مفر إلا أن ينقذهم الله تَعَالَى، فكلهم فزعوا إلى الله ثم الدعاء، فانفرجت عنهم تلك الصخرة وخرجوا يمشون.

فما أحد يضعف عند الشدة، عند عقوق ولده، ويترك اللجوء إلى ربه، الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يفرجها، وقادر سُبحَانَهُ أن يرفعها، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل: ٦٢].

فما أعظم دعاءَ الوالدين للولد!

سعادة عظيمة، ورب دعوة على الولد تسبب شقاوته وتعاسته، وقد تكون دعوة واحدة؛ فلهذا الأم عليها أن تمسِك لسانَها، لا تزيد الأمر بلاءً على ولدها بالدعاء عليه، حتى لو كان عاقًّا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ» رواه مسلم (٣٠٠٩) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقصة جريج معروفة [٥]، وجريج عبد صالح كان متفرغًا للعبادة في صومعة له، لكن بالَغَ في العبادة، وفرَّط في حق أمه، فجاءت إلى صومعته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: اللَّهم أمي و صلاتي -أَيِ: اجْتَمَعَ عَلَيَّ إِجَابَةُ أُمِّي وَإِتْمَامُ صَلَاتِي، فَوَفِّقْنِي لِأَفْضَلِهِمَا- [٦]، ومضى في صلاته، ثم رجعت، ثم عادت إليه مرة ثانية، وفي الثالثة دعت عليه، وقالت: اللَّهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات -أي: الزواني-، فاستجاب الله تَعَالَى لها هذا

(٥) روى البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَةٍ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ. قَالَ حُمَيْدٌ: فَوَصَفَ لَنَا أَبُو رَافِعٍ صِفَةَ أَبِي هُرَيْرَةَ لِصِفَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّهُ حِينَ دَعَتْهُ، كَيْفَ جَعَلَتْ كَفَّهَا فَوْقَ حَاجِبِهَا، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَيْهِ تَدْعُوهُ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ كَلِّمْنِي فَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي، فَقَالَ: اللهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَرَجَعَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فِي الثَّانِيَةِ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ فَكَلِّمْنِي، قَالَ: اللهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَقَالَتْ: اللهُمَّ إِنَّ هَذَا جُرَيْجٌ وَهُوَ ابْنِي وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ، فَأَبَى أَنْ يُكَلِّمَنِي، اللهُمَّ فَلَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ. قَالَ: وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ لَفُتِنَ. قَالَ: وَكَانَ رَاعِي ضَأْنٍ يَأْوِي إِلَى دَيْرِهِ، قَالَ: فَخَرَجَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْقَرْيَةِ فَوَقَعَ عَلَيْهَا الرَّاعِي، فَحَمَلَتْ فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقِيلَ لَهَا: مَا هَذَا؟ قَالَتْ: مِنْ صَاحِبِ هَذَا الدَّيْرِ، قَالَ فَجَاءُوا بِفُئُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ، فَنَادَوْهُ فَصَادَفُوهُ يُصَلِّي، فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ، قَالَ: فَأَخَذُوا يَهْدِمُونَ دَيْرَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَزَلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: سَلْ هَذِهِ، قَالَ فَتَبَسَّمَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَبِي رَاعِي الضَّأْنِ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ قَالُوا: نَبْنِي مَا هَدَمْنَا مِنْ دَيْرِكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ تُرَابًا كَمَا كَانَ، ثُمَّ عَلَاهُ».

(٦) ذكره الحافظ في «فتح الباري»(٦/ ٤٨٠).

الدعاء، فبينما هو يصلي في صومعته، وكانت ادَّعت امرأة أنه زنى بها، فبينما هو يصلي جاء الناس إليه ومعهم الولد، فقالوا: يا جريج، فلم يجبهم، فجعلوا يهدمون صومعته بفئوسهم ومساحيهم، فلما سمع هذا نزل إليهم فأشاروا إلى الولد، فقال: دعوني أتوضأ وأصلي، فتوضأ وصلى، ثم قال للصبي: من أبوك؟ فقال: فلان الراعي.

هذا إلهام من الله تَعَالَى وكرامة ومعجزة لجريج؛ لأنه رجل عابد وإنما أخطأ بسبب جهله. قال القرطبي في «المفهم»(٦/ ٥١٢): هذا يدلّ على أن جريجا-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-كان عابدًا، ولم يكن عالما.

فأنطق الله الرضيع بما فيه براءة جريج، والله على كل شيء قدير، فندموا وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، فقال: أعيدوها كما كانت. في غاية القناعة والزهد؛ لا يريد أن يعيدوها بأفضل منها، ولكن كما كانت.

وهذا من الفرج بعد الشدة، وأما دعاء أمه: اللّٰهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات. فاستجاب الله عَزَّوَجَلَّ لها دعاءَها على ولدها، وأراه وجه المومسات، ولو دعت الله عَزَّوَجَلَّ أن يُفتن في دينه، في عقيدته، في نفسِه، لاستُجيب لها، لكن الأم برحمتها وفطنتها دعت عليه بهذا «اللّٰهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات»، ويكون بعيدًا عن الفتنة في دينه وعقيدته، بعيدًا عن الفاحشة.

هذا يدل على عِظَمِ حق الوالدين، وأن دعاء الوالد على ولده عُرضة للخطر، عرضة لشقاء الولد، فليحذر الولد من دعاء والديه عليه، وليحذر الأبوان من الدعاء على الأولاد، أحيانًا يحصل توتر وانفعال؛ بسبب سوء تصرف الولد وإزعاجه وصراخه وعناده، ولكن الصبر والدعاء والنُّصح.

فعلمنا أن الدعاء للأولاد تربية عظيمة، وخطر الدعاء عليهم.

ومن تربية الأولاد: تعليمهم الهدوء والسكينة وعدم الصُّراخ، والهداية بيد الله عَزَّوَجَلَّ، الهدوء سعادة البيوت، إذا كان الأولاد كأنهم مجانينُ في البيوت فهذه فتنة، فتربِّي الأم الأولاد وتتودَّدُ لهم وترفق بهم، يقول النّبِيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ لعائشة: «يَا عَائِشَةُ، ارْفُقِي، فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا، دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ» رواه الإمام أحمد (٤١/ ٢٥٥)، والرفق له تأثير، فقد قال النّبِيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» رواه مسلم (٢٥٩٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

تقبِّل الأم ولدها وتحتضنه؛ شفقة ورحمة، وهكذا... قد يهديه الله سُبحَانَهُ، أما العنف والشدة قد يزيد الحال سوءًا، والبيوت نعمة من الله تَعَالَى، فلا نكدِّر نعمة هذه البيوت بالفوضى والمشاكل والخصام.

ومعلوم قصة بِشَارة أم المؤمنين خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، روى البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: «أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فِيهِ، وَلا نَصَبَ».

الشاهد: «لا صَخَبَ فِيهِ» هذه بيوت الجنة، لا صَخَبَ فِيها، معناه: أن هذا من أعظم النعم أن تكون البيوت هادئة.

أما ما قد يحصل أحيانًا شيءٌ من الإزعاج، فهذا شيءٌ قد لا يخلو منه حتى بيوت الصالحين، لا نقول: إذا حصل شيءٌ في بيوت الصالحين والأخيار، تزعزعت عندهم السنة

والاستقامة، وأذكر لكُنَّ قصة لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحيحين»(٧): عن عَبْد الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أُنَاسًا فُقَرَاءَ (٨)، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَرَّةً: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ» (٩) أَوْ كَمَا قَالَ: وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلاَثَةٍ، وَانْطَلَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَشَرَةٍ، وَأَبُو بَكْرٍ ثَلاَثَةً، قَالَ: فَهُوَ أَنَا وَأَبِي وَأُمِّي، وَلاَ أَدْرِي هَلْ قَالَ: امْرَأَتِي وَخَادِمِي، بَيْنَ بَيْتِنَا وَبَيْنَ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صَلَّى العِشَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ فَلَبِثَ حَتَّى تَعَشَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ أَوْ ضَيْفِكَ؟، قَالَ: أَوَعَشَّيْتِهِمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجِيءَ، قَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ، فَذَهَبْتُ فَاخْتَبَأْتُ (١٠)، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ (١١)، وَقَالَ: كُلُوا، وَقَالَ: لاَ أَطْعَمُهُ أَبَدًا (١٢)، قَالَ: وَايْمُ اللَّهِ، مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنَ اللُّقْمَةِ إِلَّا رَبَا (١٣) مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا حَتَّى شَبِعُوا، وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلُ، فَنَظَرَ أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا شَيْءٌ أَوْ أَكْثَرُ، قَالَ لِامْرَأَتِهِ (١٤): يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ، قَالَتْ: لا وَقُرَّةِ

---

(٧) البخاري (٣٥٨١)، ومسلم (٢٠٥٧).

(٨) كانوا مهاجرين فقراء محتاجين.

(٩) كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «طَعَامُ الِاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاَثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلاَثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ» رواه البخاري (٥٣٩٢)، ومسلم (٢٠٥٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٠) في رواية لمسلم «فَتَنَحَّيْتُ» يخشى من خصام أبيه.

(١١) نزغ الشيطان، «فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ» الغنثر: الجاهل، وقيل: الذباب.

حصل ما يشوش الخاطر وما هو من نزغات الشيطان، المهم حصل شيء من المشاكل.

(١٢) وحصل اليمين من الجانبين.

(١٣) أي: يزيد.

(١٤) وهي أم رومان.

عَيْنِي، لَهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِمَّا قَبْلُ بِثَلاَثِ مَرَّاتٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ الشَّيْطَانُ، يَعْنِي يَمِينَهُ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ (١٥)، وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَمَضَى الأَجَلُ فَتَفَرَّقْنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ، اللَّهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، غَيْرَ أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ، قَالَ: أَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ، أَوْ كَمَا قَالَ وَغَيْرُهُ يَقُولُ فَعَرَفْنَا مِنَ العِرَافَةِ.

فالشاهد: أن أبا بكر قال لولده: «يَا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ»، فأحيانًا سب الولد يجوز كما يدل له فِعْلُ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنه يكون نادرًا جدًّا.

كما نستفيد من هذه القصة: أن الضيف إذا شُغل عن أضيافه وهناك من يقوم مقامه بإكرام الضيوف أنه لا بأس بذلك،- وهؤلاء الضيوف إنما امتنعوا عن الأكل؛ احترامًا ومحبة لأبي بكر-، وبعض الناس يقول: هذا استخفاف بنا وجفاء!

ونستفيد: أنه إذا حلف الضيف والمضيف، فالمضيف هو الذي يحنث، وليس الضيف، وعليه الكفارة.

وفيه كرامة لأبي بكر، ومعجزة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١٦). وقد لطف الله بهم بعد ما تكدَّر حالهم، وتشوش خاطرهم، وزال كل ما حصل فأكل الضيوف وأكل المضيف، وجاءت الكرامة من عند الله، ونزل الخير الإلهي، ورجع الشيطان مدحورًا مخذولًا.

---

(١٥)فحمل من ذلك الطعام إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه عرف أن هذه بركة، فالطعام كان يربو، وهذه معجزه خارقة للعادة.

(١٦) قال ابن رجب في «فتح الباري»: إثبات كرامات الأولياء وخرق العوائد لهم.

وهو قول عامة أهل السنة، ووافق على ذلك المعتزلة في زمن الأنبياء خاصة، كما جرى لأبي بكر في هذه القضية، وجعلوها من جملة معجزاتهم حينئذ.

وعلى كل حال الأصل هو ضبط اللسان، ومسكه عن السباب والشتام، وعدم رفع الأصوات والصراخ، ونعوذ بالله من نزغات الشيطان وشره.

وما أشدَّ حرص الشيطان على تفكك الأسر! على تفريق الأولاد والتحريش بينهم، ثبت عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ، فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ، فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً» رواه مسلم (٢٨١٣). نسأل الله العافية.

فالحرص على الهدوء نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فما أجمل البيوت الهادئة! إنها رحمة من الله، إنها بيوت سعيدة، بيوت أُلْفة وسكينة.

فمِن أهم أنواع التربية: تربيتهم على الهدوء والسكينة، والبركة من الله تَعَالَى.

من تربية الأولاد: تربيتهم وتعويدهم على المكارم والأخلاق والكرم، هذا من حسن التربية، فالكرم خصلة عظيمة، ومن أسماء الله الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ﴾ [الانفطار: ٦]. فالكرم من أحسن الصفات وخصال الشِّيَمِ، إذا كان في الإنسان عيبٌ خَلْقِي أو خُلُقِي وعنده صفة الكرم؛ فإن الكرم يُغطي العيب، مع ما في الكرم من الفضائل والوعد بالخُلْفِ ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩ ﴾ [سبأ: ٣٩]. ويقولون: فلان طويل اليد، أي: كريم، وفلان قصير اليد، أي: بخيل، ويدل لذلك حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ

والتحقيق: أنها من جملة معجزات الأنبياء على كل حال، وفي كل زمان؛ لأن ما يكرم الله بذلك أولياءه، فإنما هو من بركة اتباعهم للأنبياء، وحسن اقتدائهم بهم، فدوام ذلك لأتباعهم وخواصهم من جملة معجزاتهم وآياتهم.

يَدًا» قَالَتْ: فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أَطْوَلُ يَدًا، قَالَتْ: فَكَانَتْ أَطْوَلَنَا يَدًا زَيْنَبُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ» رواه مسلم (٢٤٥٢). فأمهات المؤمنين ينظرن من أطول منهن يدًا، يُحضرن قصبة أو نحوها وينظرن أيتهن أطول يدًا، فكانت سودة؛ لأن سودة كانت ذات قامة وذات جسم، فلما مات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان أول من مات من نسائه زينب بنت جحش، قالت: «لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ» كانت كريمة سخيَّةً، فعلمنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أنه عنى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفةَ الكرم.

كما نستفيد من هذا الحديث: إنصاف عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ إذ تذكر فضيلةً لضرَّتها زينب، ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي حديث آخر في ثنائها على زينب، تقول: «وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ. وَأَتْقَى لِلَّهِ وَأَصْدَقَ حَدِيثًا، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً، وَأَشَدَّ ابْتِذَالًا لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ، وَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا، تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةَ» رواه مسلم (٢٤٤٢).

«وَأَشَدَّ ابْتِذَالًا لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِهِ» ابتذالًا يعني: في المهنة، تعمل من أجل ماذا؟ من أجل زخارف الدنيا؟! أو للتباهي والتفاخر؟! أو لاكتناز دراهمها؟! بل من أجل الصدقة، تعمل، وتغزل بيدها، وتنظف جلود الأنعام؛ لأنهم كانوا يستخدمونها في زمنهم للدفء والفراش، إلى أزمان قريبة، وقد قال الله سُبحَانَهُ: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل: ٥]. فكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تنظف الجلود وتعطيها للمحتاجين، أو تبيعها وتتصدق بثمنها، أو تعتق بها الرقاب.

وقد استثنت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شيئًا، فقالت: «مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا، تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةَ» أي: سرعة غضب، لكنها ترجع سريعًا، فالغضب السريع عُدَّ هذا من العيب، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ» رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةَ» يعني: تغضب وترجع سريعًا، ما تحمل الحقد في قلبها، وهذا من الصفات الحميدة، ما يبقى الإنسان حقودًا، وبعض الناس إذا وقع في نفسه شيء، إذا حقد ما يزول، يجلس يذكر ويذكر ولا ينسى ما في قلبه، ومتى وجد فرصة انتقم لنفسه، وهذا يُضرب له مثل، يقولون: حقود، أحقد من جمل.

من الذي يضرب به المثل في الحقد؟ الجمل، يقولون: الجمل إذا أساء إليه صاحبه يحقد عليه، وفي حين غفلة صاحبه عنه يبطش به.

واعلمي أن الجود والكرم ليس محصورًا في المال، بل بالمال والبدن، وبذل العلم، وفِعْلِ الإحسان، فلا يكون الإنسان أنانيًّا كل شيء إلى نفسه.

ومن تربية الأولاد: حثهم على صفاء القلوب وعدم توغير صدورهم والتحريش، هذا ليس من التربية الحسنة، هذا من التربية السيئة.

ومن تربية الأولاد: أن يكون الأبوان قدوةً في الخير، وسبق أنه ليس التربية مقتصرة على التوجيه وكذا التعليم، بل إنها أعمُّ، فمثلًا: الأم تؤثِّر على البنات في لباسها سلبًا أو إيجابًا، فيتحتم على الأم الحرص على اللباس الذي لا يخالف الإسلام، فلا تلبس ضيقًا يُحجِّم جسدها، ولا قصيرًا عاريًا، ولا تتشبَّه في لباسها بالكافرات.

كما أنها تؤثِّر على أولادها إذا وجدوها حريصةً على وقتِها، حتى وإن لم يكن هذا مِنْ أول شيءٍ، لا بُدَّ أن يتأثروا إن شاء الله ولو بعد حين.

الأولاد يتأثرون بأخلاق الأم وطِباعِها، فإذا كانت ذات أخلاق عالية، فإنهم يتأثرون بأخلاقِها وأدبِها وصدقِها وخوفِها من الله، وإذا كانت ذات خلقٍ سيِّءٍ كان الأمر كذلك.

وإن من أسماء الله اللطيف، قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسير أسماء الله الحُسنى»(٢٢٥): معنى هذا الاسم: الذي لطف علمه حتى أدرك الخفايا، والخبايا، وما احتوت عليه الصدور، وما في الأراضي من خفايا البذور.

ثم ذكر أنواعًا من لطف الله عَزَّوَجَلَّ، منها: أن من لطف الواحد الأحد أن ينشا بين أبوين صالحين وأقارب أتقياء، أو في بلد صلاح، أو وفقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم،

أو لتربية العلماء الربانيين، فإن هذا من أعظم لطفه بعبده، فإن صلاح العبد موقوف على أسباب كثيرة، منها بل من أكثرها وأعظمها نفعًا هذه الحالة.

فمن لطف أرحم الراحمين بالولد، أن ينشأَ بين أبوين صالحين، قدوة في الخير لا في الشر.

ويدخل في حُسْنِ تربيةِ الأولاد: ترْكُ ذكر عيوب أولاد الآخرين؛ فإنه يُخشى منه أن يبتليك الله في نفسِك وأولادك، عافانا الله، فلا يُذكر عيوب الآخرين كبارًا وصغارًا؛ فقد يبتلي الله المتكلم بنفس العيب في نفسه، في أولاده.

يقول بعضهم: عبت شخصًا قد ذهب بعض أسنانه، فانتثرت أسناني!

مع ما فيه من ارتكاب الغيبة، التي حرَّمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه.

ويدخل في حُسْنِ تربيتهم: كتم محاسنِهم في مجالس النساء؛ فالعين حق، فربما تُسلب تلك النعمة، فكيف بأولئكَ الذين ينشرون صورَ أولادهم ونِعَمَ الله عليهم!

فمن حُسْن تربيتهم: المحافظة على ما حباهم الله من الأدب والبِرِّ، والأوصاف الجميلة بالكِتمانِ، إلَّا إذا كان هناكَ مصلحة في إظهارِهَا والتحدُّثِ بها، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾[الضحى].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية. ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ أي: أثنِ على الله بها، وخصِّصْها بالذِّكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق(١٧)؛ فإن التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن (١٨).

فإن كان هناك مصلحة فلا بأس بذِكْرِها، ما لم يُخْشَ مفسدة من عينٍ أو حسد حاسد، ومع التحصن بالأذكار، والتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يصلحنا جميعًا، ويصلح أولادنا ويجعلهم بارّين، اللهم اجعلهم هُداة مهتدين.

تم نشر هذه المحاضرة، ولله الحمد والمنة.

ليلة الجمعة الموافق ١٨/ من شهر ربيع الأول/ لعام ١٤٤٣ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.

(١٧) من غير تخصيص بنعم الله عليه وحده، بل يعم بذِكْر نعمِ الله عليه وعلى غيره.

(١٨) وقال ابن القيم في «مدارج السالكين»(٢/٢٣٨): وَفِي هَذَا التَّحْدِيثِ الْمَأْمُورِ بِهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ذَكَرَ النِّعْمَةَ، وَالْإِخْبَارَ بِهَا. وَقَوْلُهُ: أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِكَذَا وَكَذَا.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ التَّحَدُّثَ بِالنِّعْمَةِ الْمَأْمُورَ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ: الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ، وَتَبْلِيغُ رِسَالَتِهِ، وَتَعْلِيمُ الْأُمَّةِ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّهُ يَعُمُّ النَّوْعَيْنِ؛ إِذْ كُلٌّ مِنْهُمَا نِعْمَةٌ مَأْمُورٌ بِشُكْرِهَا وَالتَّحَدُّثِ بِهَا، وَإِظْهَارُهَا مِنْ شُكْرِهَا. اهـ المراد.